الصراع العربي الإسرائيلي في الأدب، بين خورخي لويس بورخيس ومحمود درويش

عزيزة السيد السيد الخولي

باحثة في مرحلة الدكتوراة، بقسم اللغة العربية وآدابها

كلية الآداب– جامعة الإسكندرية

ملخص

هذا البحث يتناول الصراع العربي الإسرائيلي كما ظهر عند كل من بورخيس ومحمود درويش، إذ قارنت بين الحالين تجاه القضية، فكان التأثر بينهما من نوعِ التأثر المضاد؛ فقد كان الطرح الأدبي لأبعاد القضية مختلفًا؛ ليس لأنهما طرفا صراع وحسب، وإنما لأن محمود درويش عاش في مكان الصراع، وعاشر اليهود وخالطهم، بينما لم يذهب بورخيس إلى هناك إلا زائرًا، فلم يخالط الفلسطينيين ولم يعرفهم معرفة مباشرة، ففي الوقت الذي حلم فيه درويش بالسلام والتعايش بين الشعبين ودعا العدو إلى ذلك، كان بورخيس يصر على المعركة، وعلى بناء الوطن الحقيقي على حساب غيره، ولكن الأديبين اشتركا في التعبير عن حالة الشتات، والبحث عن الوطن خارجِ الكلمات.

ABSTRACT

The research dealt with the Arab-Israeli conflict, as demonstrated by Borges and Mahmoud Darwish, comparing the two cases to the case. The influence of the two was influenced by the type of counter-influence; the literary discussion of the dimensions of the issue was different; not only because they were parties to the conflict, Darwish lived in the place of the conflict, and the Jews and their interlocutors, while Borges did not go there but he was visit it, He did not confuse the Palestinians and did not know them directly. At the time when Darwish dreamed of peace and coexistence between the two peoples and called the enemy to it, Borges insisted on the battle, the real home at the expense of others, but the two writers sharing the expression of diaspora, searching for the nation of words.

مقدمة

إن أديبًا بحجم محمود درويش (١٩٤١- ٢٠٠٨م)، اطلع على آداب مختلفة، وارتحل لأراض كثيرة، وهو الذي يرى أن الشاعر لا بد أن يتعرف إلى الإنتاج الشعري الإنساني كله خارج حدود هويته القومية، لا يمكن أن يخفى عليه أديب بحجم خورخي لويس بورخيس (١٨٩٩- ١٩٨٦م)، خاصة أنهما كانا متعاصرين، وقد لا يحتاج الأمر إلى إثبات معرفة درويش ببورخيس، وربما معرفة بورخيس بدرويش أيضًا، وقد كان بورخيس على اطلاع بأخبار إسرائيل وزار الأراضي المحتلة أكثر من مرة، ودرويش معروف في إسرائيل، لدرجة أن أشعاره تدرس فيها، وتذاع في إعلامها، ولكن مما يدل على معرفة درويش ببورخيس هو قول له نشر على الغلاف الخلفي لكتاب ألبرتو مانغويل (مع بورخيس)، إذ يقول:

«هذا الكتاب الممتع يزود القراء بمفتاح لكي يفتحوا أكثر من غرفة سرية في عوالم بورخيس السحرية»(١)

إذن فقد قرأ الكتاب، ووصفه عوالم بورخيس بالسحرية أيضًا يدل على أنه قرأ في أدبه، وهو قارئ نهم مثل بورخيس، وإن الخوض في عقد دراسة مقارنة بين الأديبين ليست بالمغامرة الخطرة، ولا بالطريق الصعب، خصوصًا وهما طرفا صراع، محمود درويش الفلسطيني، وبورخيس ذي الأصول اليهودية الداعم لإسرائيل، ومن هنا فإن هذا النوع من المثاقفة التي سيرصدها هذا البحث، ستكون إحدى أهم التفاعلات بين الآداب، وهي التعديل الرفض، ستعرض فيها السطور القادمة كيف عبر الأديبان عن أبعاد هذا الصراع على الأرض والهوية والتاريخ.

---

(١) ألبرتو مانغويل، مع بورخيس، ترجمة أحمد م. محمد، دار الساقي، بيروت، لبنان، ط١، ٢٠١٥، الغلاف الخلفي للكتاب.

بين الشتات والمنفى

«هل في وسعك أن تكون طبيعيًا في واقع غير طبيعي؟ لا شيء يبدو طبيعيًا في هذا المخاض الذي نتبادل فيه البدايات والنهايات لعبة الكراسي. صحيح أن الحرب تبدو وكأنها انتهت. ولكن السلام لم يبدأ. فليس من أسماء السلام الجميلة أن يضرب الحصار العسكري على مجتمع اختار السلام جوابًا على سؤاله الوجودي والوطني، بعدما أنقذ هويته من خطر التلاشي في الآخر من جهة، ومن خطر الانغلاق من جهة ثانية»(١).

إن تزييف التاريخ والحضارة والثقافة والهوية، أهم الأدوات الحربية التي تستخدمها الصهيونية في تأصيل حقها الاستعماري في فلسطين، بل في تأسيس الحلم الكبير، دولة من النيل إلى الفرات، ولذلك فإن الفلسطيني لا يحارب فقط من أجل الأرض، وإنما من أجل الهوية، من أجل التاريخ الذي سُرق وشُوه بأبشع الطرق، التي لا تقل قسوة وبشاعة عن الجرائم العسكرية والمجازر التي ترتكبها إسرائيل في حق الشعب الفلسطيني.

على الجانب الآخر، نجد بورخيس أيضًا يؤكد على هويته اليهودية، ويفتخر بها، ويسخر ممن يرون أن يهوديته تهمة أو سبة:

«طوال حياتي حاولت أن أكون يهوديًا، وأن أكون جديرًا بالقابالا، وبأولئك الذين أضافوا أعداد سفر التكوين لكي يجدوا الكلمة، الذين رأوا الخلق ذاته مجرد رمز للكلمة الموجودة قبل الخلق وقبل الزمن، حتى وإن لم أكن قد حاولت أن أكون يهوديًا، فأنا كذلك من طرف والدتي، أسيفيدو، وهو اسم برتغالي توراتي من سالونيكا، وأنا أيضًا من ميناء باجو دي لو أريوس حيث في عام ١٧٢٨ جاء مزارع من كاتالينا هو دون بيدرو دي أسيفيدو ورسا في الأرجنتين»(٢).

---

(١) محمود درويش، حيرة العائد، الأعمال الجديدة الكاملة، م٣، رياض الريس للكتب والنشر، بيروت– لبنان، ط١، يناير ٢٠٠٩، ص٢٠٧.

(٢) ويليس بارنستون، مع بورخيس، مساء عادي في بوينس آيرس، ت: عابد إسماعيل، دار المدى، ط٢، ٢٠١٤م، ص٣٠.

ويكرر في الشعر كيف كان يبحث عن هذا العرق اليهودي في أجداده، يبحث في الأجيال السابقة عليه، منقبًا عن هذا الدم الذي يسري فيه في كل مكان، البيت القديم، في الظل، في المطر، في المرايا والانعكاسات، في الصدى، يقول في قصيدة (**la busca**):

«في نهاية الأجيال الثلاثة/ أعود إلى حقول أسيبيدو/ الذين كانوا أجدادي، الغامضين/ الذين بحثت عنهم في هذا البيت القديم/ الأبيض والمستطيل، والعذب/ في اثنين من المعارض، في الظل/ وبتصميم أكثر / في الصرخة الخالدة للطيور/ في المطر الذي يملأ السطح/ في شفق المرايا/ في الانعكاس، في الصدى، الذي كان لكم/ وهو الآن لي، دون علمي.»(١)

وفي قصيدة أخرى يعبر أيضًا عن هذا الحنين إلى الجذور الإسبانية البعيدة، بعد أن يذكر ما مر على إسبانيا من عهد الإسلام، وظهور القبالا، ومحاكم التفتيش التي عاقبت من يخالفها بالإعدام، يقول في قصيدة (إسبانيا **España**):

«يمكننا أن نعلن حبنا للآخرين/ ويمكننا أن ننساهم/ كما ننسى ماضينا/ لأنه لا ينفصل عنا، إنه فينا/ وفي عاداتنا ودمنا/ في آسيبيدو وسواريز من نسبي/ إسبانيا/ أم الأنهار والسيوف والأجيال المتلاحقة / المتواصلة والقاتلة»(٢)

ولم يكن بحث بورخيس عن الهوية اليهودية متعلقًا فقط بالدين، وإنما كانت إسرائيل هدفه، حتى وإن لم يصل إلى حقيقة انتمائه لها، فلا يهم، المهم أنها إرث ثقافي وحضاري وديني ينتمي إلى الإله، كما يراها، وقد عبر عن هذا المعنى شعرًا، وكتب (إلى إسرائيل) يقول:

---

(١) **Jorge Luis Borges, Obras Completas 1923- 1972, Emecé Editores, Buenos Aires, 1984 p1100.**

(٢) **Jorge Luis Borges, Obras Completas 1923- 1972, pp931, 932.**

«من سيخبرني؟ هل أنت، يا إسرائيل/ في تيه روافد دمي المفقودة الموغلة في القدم؟/ من سيخبرني بالأماكن التي/ جابها دمي ودمك؟/ لا يهم. أعلم أنك في الكتاب المقدس الذي / يحوي الزمن وينقذ حكاية آدم الأحمر/ واحتضار المصلوب/ أنت موجودة في ذلك الكتاب / مرآة كل وجه ينحني فوقه/ ووجه الرب الذي يحدس على سطح زجاجه/ المعقد والعسير / سلامًا إسرائيل/ تحفظين حائط الله في أجيج معركتك»(١)

وفي قصيدة (إسرائيل ١٩٦٩)، يؤكد على هذا المعنى، يؤكد على حق إسرائيل التاريخي في الأرض، وفي الهوية:

«يا قدس، قرب مياه بابل/ أي شيء كنته يا إسرائيل إلا هذا الحنين/ والرغبة في إنقاذ الكتاب السحري القديم/ من بين أشكال الزمن العارضة/ وحدتك مع الله؟/ كلا، فأقدم الأمم هي أيضًا/ أحدث الأمم/ ما أغريت الناس بالحدائق/ ولا بالذهب وضجره/ بل بالقوة ملاذًا أخيرًا.»(٢)

إنه يؤكد هنا عقيدة يهودية بأن إسرائيل هي الأمة المختارة، وأن الصراع على الأرض صراع ديني في الأصل وليس صراعًا سياسيًا، وهذا الحق الذي يدعيه، لا يدعمه سوى القوة، الدينية والعسكرية طبعًا.

وبين الشتات والمنفى، يحاول اليهود والفلسطينيون إثبات حقوقهم في الأرض، والهوية والتاريخ، حين يتيهون في المنفى، يحتفظون بالمفاتيح التي تؤكد حقوقهم في منازلهم، حين يعودون إليها، ولقد عبر الشعر الفلسطيني عن هذه العادة الفلسطينية، وعبر عنها درويش كثيرًا، نجده في (أربعة عناوين شخصية) تحت عنوان (مقعد في قطار) يعبر عن

---

(١) مديح الظل، ت/ محمد أبو العطا، المركز القومي للترجمة، القاهرة، ط١، ٢٠١١، ص٦٥، ٦٦، وانظر: **Jorge Luis Borges, Obras Completas 1923– 1972, p996**

(٢) مديح الظل، ص٩٧، ٩٨، ٩٩، وانظر: **Jorge Luis Borges, Obras Completas 1923– 1972, p1006**

حالة الشتات، بمقعد في قطار وليس ثمة وجهة للمنفيين، وليس ثمة فرحة بالوصول، والمفاتيح التي يحملها المنفي، لا تجد أبوابها:

«مناديلُ ليست لنا. عاشقاتُ الثواني الأخيرةِ. ضوءُ المحطة/ وردٌ يُضَلّل قلبًا يفتّش عن معطفٍ للحنان. دموعٌ تخون الرصيفَ. أساطيرُ ليست لنا/ من هنا سافروا، هل لنا من هناك لنفرحَ عند الوصول؟ زنابقُ ليست لنا كي/ نُقبّل خط الحديد. نسافر بحثًا عن الصِّفْر لكننا لا نحبّ القطارات حين/ تكون المحطات منفى جديدًا. مصابيحُ ليستْ لنا كي نرى حُبّنا واقفًا في/ انتظار الدخانِ. قطارٌ سريعٌ يقصّ البحيراتِ. في كل جيبٍ مفاتيح بيتٍ/ وصورة عائلةٍ. كُلّ أهلِ القطارِ يعودون للأهلِ، لكننا لا نعودُ إلى أي بيتٍ/ نسافرُ بحثًا عن الصفرْ كي نستعيد صواب الفراش. نوافذُ ليست لنا/ والسلامُ علينا بكلّ اللغات. تُرى، كانت الأرضُ أوضحَ حين ركبنا الخيولَ/ القديمة؟ أين الخيول، وأين عذارى الأغاني، وأين أغاني الطبيعة فينا؟/ بعيدٌ أنا عن بعيديَ. ما أبعد الحبّ! تصطادنا الفتياتُ السريعاتُ مثل/ لصوصِ البضائع. ننسى العناوين فوقَ زجاج القطاراتِ. نحن الذين/ نحبّ لعشر دقائق لا نستطيع الرجوعَ إلى أي بيتٍ دخلناه. لا نستطيع عبور/ الصدى مرتين»(١).

يترك الفلسطيني بيته ولكنه يحتفظ بالمفتاح، يتحسسه كي يطمئن على وجوده، وكأن وجود البيت مرهون بوجود المفتاح، وكأن المفتاح دليل امتلاك، وهو الشاهد على التاريخ:

«– ومن يسكن البيت من بعدنا يا أبي؟/ – سيبقى على حاله مثلما كان يا ولديّ/ تحسس مفتاحه مثلما يتحسس/ أعضاءه، واطمأن. وقال له/ وهما يعبران سياجًا من الشوك:/ يا ابني تذكر! هنا صلب الإنجليز/ أباك على شوك صبارة ليلتين/ ولم

(١) محمود درويش، الديوان، الأعمال الأولى م٣، رياض الريس للكتب والنشر، بيروت– لبنان، ط١، يونيو ٢٠٠٥، ص٤٣، ٤٤.

يعترف أبدًا. سوف تكبر يا / بني، وتروي لمن يرثون بنادقهم/ سيرة الدم فوق الحديد...»[(١)]

وإذا كان الأمر كذلك بالنسبة للفلسطيني، نجد في قصيدة لبورخيس بعنوان (Una Llave en Salónica مفتاح في سالونيكا) أن المفتاح يحمل علامة الشتات والمعاناة بالنسبة لليهودي، فهو ليس دليل امتلاك؛ لأن بابه لم يعد سوى غبار، يقول بورخيس:

«أباربانل، فارياس أو بينيدو/ طُردوا من إسبانيا إثمًا/ واضطهادًا، وما زالوا يحتفظون / بالمفتاح لمنزل في طليطلة/ والآن وقد تحرروا من الرجاء والخوف/ ينظرون إلى المفتاح الذي بدا نهارًا/ وقد كان بالأمس البعيد برونزيًا/ يسطع بالتعب والمعاناة/ واليوم أصبح بابه غبارًا، ويعد آلة/ للشتات وللريح/ تشبه ذلك المفتاح الآخر للمحراب/ الذي ألقاه شخص إلى الزرقة، عندما اندفع الرومان / بتهور مع النيران/ وقد التقطته يد في السماء»[(٢)].

ويعلق بورخيس على هذه القصيدة في حوار له قائلاً:

«ها أنا ذا مع شعبي من اليهود الإسبان في الشتات المشرقي، أجدادي يسمون بينيدو وأسيفيدو. أظن أنني جزئيًا يهودي، نحن جميعًا من الإغريق والعبرانيين الغربيين. هاتان الأمتان الأساسيتان اليونان وإسرائيل. روما ليست سوى تحصيل حاصل- مجرد امتداد»[(٣)].

---

(١) محمود درويش، الأعمال الجديدة الكاملة، م١، رياض الريس للكتب والنشر، بيروت- لبنان، ط١، ٢٠٠٩، ص٢٩٩.

(٢) Jorge Luis Borges, Obras Completas 1923- 1972, p876. وانظر:
ويليس بارنستون، مع بورخيس، مساء عادي في بوينس آيرس، ص٣٢، ٣٣.

(٣) ويليس بارنستون، مع بورخيس، مساء عادي في بوينس آيرس، ص٣٣.

بورخيس يؤكد في أكثر من مناسبة أن إسرائيل جزء أساسي في الحضارة والثقافة العالمية، ويؤكد أيضًا انتسابه إليها، في قصيدة بعنوان (آثيبيدو) اسم أحد أجداده، يقول:

«حقول أجدادي التي لم تزل/ تحمل اسم آثيبيدو،/ حقول شائهة/ يعز علي تخيلها كاملة/ تأخرت أعوامي ولم أشهد/ الفراسخ المجهدة كم الغبار والوطن/ ورآها أسلافي من فوق جيادهم/ الطرق المفتوحة، المغيب والسَّحَر/ السهل ملتو. رأيتها/ في (آيوا) والجنوب وأرض العبرانيين/ في حقل الصفصاف في الجليل/ شقتها قدما المسيح البشريتان/ لم أفقدها. هي لي/ هي ملكي في النسيان/ في رغبة عابرة.»(١)

لقد طُرد اليهود من إسبانيا كما طُرد المسلمون، وتوزعوا في أنحاء العالم، ولكن ماذا فعل اليهود بعد هذا الشتات؟ لقد اختاروا أرضًا وادعوا حقهم فيها، وشردوا أهلها، وبالتالي أصبح أمامنا حالان متضادتان: المنفى والعودة، وهما «تصنيفان لا يمكن الاستغناء عنهما في بناء الوعي الفلسطيني والصهيوني، وإن كان كلاهما في اتجاه معاكس للآخر: ما فهمه الصهاينة كنهاية (كذا) للمنفى وعودة إلى (وطنهم) قرر في الواقع منفى الفلسطينيين وطردهم من أرضهم وديمومة عيشهم كلاجئين (كذا) وتعرضهم للتمييز»(٢)، وبالتالي لم يبق للفلسطينيين سوى بلد من كلمات، شعارات السلام المزيف، والمنفى واللجوء، فهم يسافرون كالناس، لكنهم لا يعودون إلى أي شيء، كما يقول درويش في قصيدته (نسافر كالناس) من ديوان (ورد أقل)؛ لأن ليس لهم بلاد حقيقية، وإنما بلدهم من كلام:

«لَنَا بَلَدٌ مَنْ كَلامَ. تَكَلَّمْ تَكَلَّمْ لأُسْنِدَ دَرْبِي عَلَى حَجَرٍ مِنْ حَجَرْ

(١) بورخيس، مديح الظل، مرجع سابق، ص٨٣، ٨٤. وانظر: Jorge Luis Borges, Obras Completas 1923- 1972, p1003.

(٢) أمنون راز كراكتسكين، المنفى وثنائية القومية (من غيرشوم شولم وحنه آرندت إلى إدوارد سعيد ومحمود درويش)، مجلة الكرمل الجديد، ٣-٤، ربيع- صيف ٢٠١٢م، ص٨١.

لَنَا بَلَدٌ مِنْ كَلاَم. تَكَلَّمْ تَكَلَّمْ لِنَعْرِفَ حَدًّا لِهَذَا السَّفَرْ!»(١)

ولأنه لم يتبق لهم سوى بلد من الكلمات، كيف يأخذ صاحب الكلمات مكانه في الحرب، والمعركة غير المتكافئة، من سيحارب وكيف يحارب، يقول درويش في قصيدة (من فضة الموت الذي لا موت فيه):

«قطعوا يديّ وطالبوني أن أدافعَ عن حلبْ/ واستأصلوا منّي خطاي وطالبوني أن أسير إلى صلاة الغائبين/ أشعلتُ معجزتي وسرْتُ، فحاصروني، حاصروني، حاصروني/ قالوا: انتظرْ، فنظرتُ. [لا تكسرْ موازينَ الرياحِ مع العدو]/ ووقفتُ: قالوا: لا تقفْ. فمشيتُ ثانيةً، فقالوا: لا تسِرْ/ [الحربُ فرٌّ. لا تحاربْ خارجَ الكلماتِ]. قلتُ: منِ العدوّ؟/ [ارفعْ شعارك وانتظرْهُ واعتذر عمّا فعلتْ]/ ماذا فعلْتُ؟ [بحثْتَ وحدك عن خطاكَ ولم تبلّغْ سيِّدكْ]/ من سيِّدي؟ قالوا: [الشعارُ على الجدار] فقلتُ: لا/ لا سيّدٌ إلاّ دمي المحروقُ في جسدي يفتّش عن يديَّ/ لتدقَّ بوابات هذا الليلِ. لا. لا سيّدٌ إلاّ دمي. هي أُغنيهْ»(٢)

وفي الوقت الذي لم يجد فيه الشاعر الفلسطيني مكانًا في معركة خارج الكلمات، فإن اليهودي الإسرائيلي لم يسع إلى بلد من كلمات، وإنما سيبني وطنًا حقيقيًا ويأخذ مكانًا حقيقيًا في المعركة، يقول بورخيس في قصيدته (إسرائيل١٩٦٩):

«قالت لهم إسرائيل بلا كلمات:/ انس من أنت:/ انس الآخر الذي كنت/ انس من كنت في الأراضي التي منحتك صبحها ومساءها/ ولن تمنحها حنينك/ انس لغة آبائك وتعلم لغة الجنة/ ستكون إسرائيليًا، ستكون جنديًا/ ستبني وطنًا

(١) محمود درويش، الأعمال الأولى م٣، ص١١٩.

(٢) محمود درويش، الديوان، الأعمال الأولى م٣، ص١٠٠.

ومستنقعاته، ستقيمه ببطاحه/ سيعمل معك أخوك الذي لم تر من قبل وجهه/ ونعدك بشيء واحد:/ مكانك في المعركة»(١)

وهكذا سيبني الجندي الإسرائيلي وطنه المسروق من أحلام غيره، الوطن الذي ضاع من الواقع واستقر في كلمات، سيسرق الأرض بكل ما فيها، ولن يترك للفلسطيني سوى ذكريات لبيت، ومنفى، يقول درويش في قصيدة (أنا من هناك):

«أنا من هناك. ولي ذكرياتٌ. ولدت كما تولد الناس. لي والدةْ/ وبيتٌ كثير النوافذِ. لي إخوةٌ. أصدقاء. وسجنٌ بنافذة باردهْ/ لي موجةٌ خطفتها النوارس. لي مشهدي الخاص. لي عشبةٌ زائدهْ/ ولي قمرٌ في أقاصي الكلام، ورزقُ الطيور، وزيتونةٌ خالدهْ/ مررتُ على الأرض قبل مرور السيوف على جسدٍ حوّلوه إلى مائدهْ/ أنا من هناك. أعيد السماء إلى أمها حين تبكي السماء على أمها/ وأبكي لتعرفني غيمةٌ عائدهْ/ تعلّمتُ كل كلام يليقُ بمحكمة الدم كي أكسر القاعدهْ/ تعلّمتُ كل الكلام، وفككته كي أركب مفردةً واحدهْ/ هي: الوطنُ...»(٢)

وهي فكرة ترددت كثيرًا في شعر درويش، وخصوصًا في بداياته، كيف يجد الفلسطيني نفسه قد ولد من كلمات، ومات شهيدًا على خريطة، ضائعًا بلا يد وبلا هوية:

«أنا ولد الكلمات البسيطة/ وشهيدُ الخريطة/ أنا زهرةُ المشمش العائلية/ فيا أيّها القابضون على طرف المستحيل/ من البدء حتّى الجليل/ أعيدوا إليّ يديّ/ أعيدوا إليّ الهويّة»(٣)

---

(١) بورخيس، مديح الظل، ص ٩٨، ٩٩، وانظر: Jorge Luis Borges, Obras Completas 1923– 1972, p1006.

(٢) محمود درويش، الأعمال الأولى م٣، ص١١٣.

(٣) محمود درويش، الأعمال الأولى م٢، ص٢٩١.

وإن هذه الحال التي يعبر عنها درويش جاءت نتيجة سعي الفلسطينيين إلى اعتراف دولي بحقهم في الأرض، ولكنهم إلى الآن لم يحصلوا على هذا الاعتراف سوى على الورق، فأصبح الوطن مجرد مفردة مجردة من المعنى الحقيقي، وكم كان يحلم الفلسطيني بأن يحرر الأرض، ويشرب كأس نخبه ولو حتى في القصيدة، ولو في الأغاني، وقد كان يخشى أن يموت قبل هذا، كما عبر درويش في (صلاة أخيرة):

«بلادي يا طفلة أمة/ تموت القيود على قدميها/ لتأتي قيود جديدة/ متى نشرب الكأس نخبك/ حتى ولو في قصيدة؟/ ففرعون مات/ ونيرون مات/ وكل السنابل في أرض بابل/ عادت إليها الحياة!/ متى نشرب الكأس نخبك/ حتى ولو في الأغاني/ أيا مهرة يمتطيها طغاة الزمان/ وتفلت منا/ من الزمن الأول/ – لجامك هذا.. دمي!/ – وسرجك هذا.. دمي/ إلى أين أنت إذن رائحة/ أنا قد وصلت إلى حفرة/ وأنت أمامًا.. أمامًا/ إلى أين؟/ يا مهرتي الجامحة؟!»[١]

على أن ثمة فارقًا بين التجربتين، تجربة بورخيس وتجربة درويش، فقد كان بورخيس بعيدًا عن الأرض المحتلة، لم يعش الصراع على أرض الواقع كما عاشه درويش، لذا لا نجد في شعره صدى لعلاقات حقيقية بين الإسرائيليين وبين الفلسطينيين، في الوقت الذي نجد ذلك بكثرة عند درويش، الذي ارتبط بعلاقات صداقة وحب مع اليهود، وريتا أصدق مثال على ذلك، قصة الحب الممنوع الذي اغتالته البندقية، مما جعل حروف قصائد درويش حائرة بين السلام المنشود، وبين الحرب التي لم تنهها توقيعات الاتفاقيات المنقوصة، التي كتبتها أيادي الاحتلال، وأمليت على الفلسطينيين. كما أن درويش كان من الذين نادوا بأن يتعايش الفلسطينيون والإسرائيليون معًا في دولة واحدة، يكون لكل منهما الحقوق نفسها وعليهم الواجبات نفسها، ومن أجل الوصول إلى هذا الغرض، كان درويش

---

[١] محمود درويش: الأعمال الأولى م١، رياض الريس للكتب والنشر، بيروت– لبنان، ط١، يونيو ٢٠٠٥، ص١٧٠، ١٧١.

«عضوًا في "الحزب الشيوعي الإسرائيلي" على أساس أن ذاك الحزب كان ينادي بالحد الأدنى من حقوق للفلسطينيين، وليس بالحد الملائم والمرغوب»(١)، ولقد وجهت تلك العلاقات بين درويش وبين الإسرائيليين شعره إلى الأمل في السلام، الأمل الذي أخذ يربيه في حالة حصار، الحصار الذي سيمتد إلى أن نعلم أعداءنا نماذج من شعرنا الجاهلي، الحصار الذي جعل درويش يدعو الجنود إلى شرب القهوة العربية:

«أيها الواقفون على العتبات ادخلوا/ واشربوا معنا القهوة العربية/ (قد تشعرون بأنكم بشر مثلنا)/ أيها الواقفون على عتبات البيوت، / اخرجوا من صباحاتنا/ نطمئن إلى أننا/ بشر مثلكم»(٢)

وإن لم تُجْدِ دعوة العدو إلى القهوة العربية نفعًا، فكر درويش في تقويض فعل القتل الذي يمارسه العدو، مذكرًا إياه بقيمة السلام، وإعادة النظر في طريقته لاستعادة الهوية، طلب منه أن يفكر ويتأمل وجه الضحية:

«(إلى قاتل): لو تأملت وجه الضحية/ وفكرت، كنت تذكرت أمك في غرفة/ الغاز، كنت تحررت من حكمة البندقية/ وغيرت رأيك: ما هكذا تستعاد الهوية»(٣)

ويوجه درويش عرضًا آخر لقاتل آخر؛ إذ يحدثه عن التعايش سويًا بطريقة مباشرة، وكيف أنه يقتل الأمل في الحياة المشتركة بين الشعبين، أن يتمازجا تمامًا في علاقة زمالة في الدراسة، يدرسان معًا، وفي علاقة حب ونسب تنتج أبناء لا يعرفون شيئًا عن مأساة الحروب والحصار، ويصور نتائج ذلك، فيقول:

---

(١) أحمد أشقر: التوراتيات في شعر محمود درويش من المقاومة إلى التسوية، قدمس للنشر والتوزيع، ط١، ٢٠٠٥، التقديم بقلم: بشار إبراهيم، ص١٢.

(٢) محمود درويش، الأعمال الجديدة م١، ص١٨٦.

(٣) محمود درويش، الأعمال الجديدة م١، ص١٩٧.

«(إلى قاتل آخر): لو تركت الجنين/ ثلاثين يومًا، إذًا لتغيرت الاحتمالات:/ قد ينتهي الاحتلال ولا يتذكر ذاك/ الرضيع زمان الحصار/ فيكبر طفلاً معافى، ويصبح شابًّا/ ويدرس في معهد واحد مع إحدى بناتك/ تاريخ آسيا القديم/ وقد يقعان معًا في شباك الغرام/ وقد ينجبان ابنة (وتكون يهودية بالولادة)/ ماذا فعلت إذًا؟/ صارت ابنتك الآن أرملة/ والحفيدة صارت يتيمة؟/ فماذا فعلت بأسرتك الشاردة/ وكيف أصبت ثلاث حمائم بالطلقة الواحدة؟»(١)

ولكن أمل درويش الذي كان يربيه لم يكبر، والسلام المنشود لم يتم، فالعدو لا يشرب القهوة العربية؛ لأن العدو لم ير ما كان يراه درويش، ولم يرغب في بناء هذا الواقع الحالم، لأن العدو هو العدو، وهو الذي اختار، وهذا ما انتهى إليه درويش، حين فقد الأمل في السلام، فما زال الشعب الفلسطيني يقتل، والقتلى لا يتشابهون:

«لكن القتلة هم الذين يتشابهون. فَهُم واحدٌ مُوزَّعٌ على أَجهزة معدنية. يضغط على أزرار إلكترونية. يقتل ويختفي. يرانا ولا نراه، لا لأنه شبح، بل لأنه قناع فولاذيّ لفكرة، لا ملامح له ولا عينان ولا عمر ولا اسم. هو ... هو الذي اختار أن يكون له اسم وحيد: العَدُوّ!»(٢)

أما بورخيس، وهو غير القادر أصلاً على الحرب، فقد كان يتغنى بأمجاد أسلافه المحاربين، فلقد أخفى عجزه في ذكر مآثر القدماء، البطولات التي تغنى بها، والتي كان يحلم أن يصنع مثلها، ولكنه رغم كل شيء، لم يستطع أن يفعل ذلك سوى بالكلمات. في قصيدة (١٩٧٢) يقول:

«كنت أخشى أن المستقبل (الذي يتناقص بالفعل)/ سيكون ممرًا عميقًا من المرايا الغامضة، الكسولة، والمتقلصة/ مجرد تكرار للأباطيل/ وفي العتمة التي

---

(١) محمود درويش، الأعمال الجديدة م١، ص١٩٨.

(٢) محمود درويش، الأعمال الجديدة م٢، ص٥٥١، ٥٥٢.

تسبق الحلم/ دعوت الآلهة التي لا أعرف أسماءها/ أن ترسل شيئًا أو أحدًا ما إلى أيامي/ وقد فعلت، أرسلت وطني، وأسلافي/ الذين خدموه رغم القيود/ بالمشقة والجوع والمعارك/ وهنا من جديد، ها هو الخطر الجميل/ أنا لست ظلاً لهم/ أولئك الذين كرمتهم بآيات لا تنسى/ أنا أعمى، وقد بلغت السبعين/ أنا لست الشرقي فرانسيسكو بورخيس/ الذي مات برصاصتين في صدره/ بين آلام الرجال/ في رائحة الدماء في المستشفى/ ولكن وطني المنتهك اليوم يريدني/ أن أشحذ قلمي النحوي/ الذي تمرس في التفاهات الأكاديمية/ وغفل عن أعباء السيف/ وأجمع ما يقال في الملحمة/ وأن أطالب بمكاني. وأنا أفعل ذلك»(١).

ولقد فعل ذلك، واتخذ من قلمه سلاحًا، يطرح به أفكاره التي تناصر إسرائيل، وتفتخر بمجد السابقين، الذين تمكنوا من اختراق الشرق؛ فنراه يفتخر أيضًا بأجداده البرتغاليين الذين قوضوا جدران الشرق، فيقول في قصيدة (آل بورخيس/ البورخيسيون **los Borges**):

«هم البرتغاليون، الشعب الشهير/ الذي دك جدران الشرق/ وخاضوا البحر، إلى بحر آخر من الرمال/ هم الملك الذي فُقد في الصحراء الصوفية/ وقد أقسم أنه لم يمت»(٢)

وفي مقطع من قصيدة (صلاة أخيرة) لدرويش يشبه المقطع السابق من قصيدة (١٩٧٢) قليلاً، حين يقول درويش:

«يخيل لي أن عمري قصير/ وأني على الأرض سائح/ وأن صديقة قلبي الكسير

---

(١) **Jorge Luis Borges, Obras Completas ١٩٧٥ –١٩٨٥, p104.** وانظر: بورخيس، مختارات من شعره، ترجمة وتقديم د/ حسن حلمي، درا شرقيات، القاهرة، ط١، ١٩٩٩ص١٦٩، ١٧٠.

(٢) **Jorge Luis Borges, Obras Completas 1923– 1972, p831.** وانظر: مرآة الحبر، ص١٠٢

تخون إذا غبت عنها/ وتشرب خمرًا/ وتكتب شعرًا / لغيري/ لأني على الأرض سائح!»(١)

وهنا يظهر العجز الذي لم يسببه العمى كما في حال بورخيس، وإنما تسببه حال الشتات والمنفى، التي يعيشها الفلسطيني، مجردًا من كل حق في الدفاع عن وطنه.

وحين يتحدث بورخيس عن وطنه في قصيدة (قصيدة كتبت عام ١٩٦٠ **Oda compuesta en 1960**)(٢) لا يذكر اسمه، وإن كان يبدو أنه يتحدث عن الأرجنتين، ولكن للمفارقة يذكر أن علم بلده يحتوي اللونين الأبيض والأزرق، والعلمين، علم الأرجنتين وعلم إسرائيل، بهما اللونان نفسهما.

ولم يظهر عند بورخيس بالطبع ما ظهر عند درويش من احتمالات التعايش بين الشعبين، والدعوة إلى ذلك، لأنه لم يرتبط بعلاقات بالفلسطينيين، لم يعنه أصلاً مصيرهم، ولم يعانِ الشتات والمنفى سوى في كلماته، أما في الواقع فلا، بل إنه لم يقم أي حوار من أي نوع بينه وبين الآخر الفلسطيني كما كان يفعل درويش.

هي إذن حالة مشتركة بين الأديبين، وإن كانت أسبابها مختلفة؛ ففي حالة درويش، الذي كان يمكنه أن يشارك بروحه في المعركة، ولكنه كان يؤثر السلام، وآثر أن يبقى مسجونًا داخل الكلمة/ الوطن/ المنفى، كما أنه لم تكن هناك معركة أصلاً، إنما كانت المقاومة، مقاومة الاحتلال والحصار، الذي خلفته الاتفاقيات، وكانت الانتفاضة، التي آزرها بقلمه، أما بورخيس فقد كان أسير الظل/ العمى/ المتاهة الكونية/ الكتاب.

---

(١) محمود درويش: الأعمال الأولى م١، ص١٦٨.

(٢) **Jorge Luis Borges, Obras Completas 1923– 1972, p834.** وانظر: مرآة الحبر، ص١٠٥

الخاتمة ونتائج البحث:

لقد شغل الصراع العربي الإسرائيلي الأدباء العرب والصهاينة على حدٍ سواء، إذ يحاول كل منهم أن يروج للقضية من وجهة نظره، ولا يخفى على أحد كم يسعى الصهاينة إلى تحسين صورة إسرائيل، والظهور أمام العالم في صورة الضحية التي تدافع عن نفسها ضد الإرهاب المزعوم، ونحن نعلم مدى خطورة الترويج لهذه الأفكار في السيطرة على أذهان الشعوب، حتى الشعوب العربية، وبالتالي ضياع الحق.

ولقد ظهر هذا الجانب من الصراع عند محمود درويش ممثلاً الجانب الفلسطيني، وعند بورخيس ممثلاً للجانب الصهيوني، وتبينا كيف يحاول كل منهما في شعره ونثره، إثبات الحق في الأرض، والبحث عن الهوية والوطن، وقد تشابهت المفردات التي استخدماها في التعبير عن قضاياهم، ولكن في اتجاه يعاكس اتجاه الآخر.

وكانت نتائج البحث:

١- عبر كلا الأديبين عن الشتات والمنفى، ولكن الفرق بينهما أن درويشًا كان يعبر عن حالة حقيقية واقعية عاشها، أما بورخيس فلم يعش هذه الحالة، وإنما عبر عنها من خلال التاريخ الذي يروج له.

٢- عجز كلا الأديبين عن المشاركة في المعركة، إذ كان درويش يأمل في السلام، أما بورخيس فكان العمى سبب عجزه، فآثر التغني بأمجاد القدماء.

٣- تأرجحت أفكار درويش بين الرجاء واليأس، والحلم بالحرية، أما بورخيس فكان واثقًا من قدرة إسرائيل على انتزاع حقها المزعوم.